(التنشئة الاجتماعية بين التحليل الكلي و التحليل الفرداني)

د. براهيمي أم السعود

قسم العلوم الاجتماعية، جامعة الجلفة

ملخص

يبدو مفهوم السلطة الأبوية في الوقت الحاضر، أنه افساح الطريق لمصطلح المسؤولية الأبوية، ومع ذلك، فإن التنشئة الاجتماعية تُعرّف دائما كعملية تربوية، كإدخال أو دمج طرق التفكير والقيام بنشاطات مصممة اجتماعيا. كما نتحدث أيضا عن تلقين الذي يمكن أن ينطوي على الاضطهاد، وخاصة من أسرة عليا على الفرد (وسط أبوي). فهل تتمكن التنشئة الاجتماعية في هذه الحالة من تشجيع التحرر و الحكم الذاتي؟ وهل يجب علينا رصد التنشئة الاجتماعية في مصب النظرة الكلية المنهجية أو الفردية المنهجية؟

كلمات مفتاحية: التنشئة الاجتماعية، التحليل الكلي ، التحليل الفرداني

Résumé

Le concept d'autorité parentale semble de nos jours, céder la place au terme de responsabilité parentale, cependant la socialisation est toujours définie comme un processus éducatif, d'intériorisation ou d'incorporation des manières de penser et de faire socialement conçues. On parle aussi d'inculcation, ce qui pourrait impliquer une oppression, surtout de la part d'une institution antérieure et supérieure à l'individu(le milieu parental).la socialisation peut-elle dans ce cas, favoriser l'émancipation et l'autonomie ?

Doit-on saisir la socialisation dans le sens du holisme méthodologique ou dans le sens de l'individualisme méthodologique ?

تمهيد

ينظر عادة الى التنشئة الاجتماعية باعتبارها نمذجة متعمدة حيوية ،إرادية و واعية و هي ، بهذا المعنى ، عملية تجري تحت إشراف فاعلين مؤسسين (المدرسة ،الأسرة ...الخ) معينين بصفة رسمية. فالفرد في هذه الحالة ، مدعو الى تعلم و استيعاب مجموعة الدلالات و المعاني المشتركة بين أعضاء الجماعة بما فيها أساليب التفكير و السلوك ، المعارف ، الطقوس و المراسيم ، طرق التعبير ونمط العلاقات.

لقد ظل علم الاجتماع في كنف التحليل الكلي ، يركز و لفترة طويلة، على أهمية الضبط الاجتماعي خلال التنشئة الاجتماعية، من أجل تحقيق درجة من التجانس بين أعضاء المجتمع واصفا بذلك عملية تخضع الأفراد لثقل المحددات الاجتماعية. فالقول أن استقرار المجتمع و انسجامه و بقائه ، أمور مرتبطة بمدى نقل القيم و المعايير و نماذج السلوك من جيل الى جيل ، أدى الى الجزم أن التنشئة الاجتماعية عملية تربوية تجري وفق منهجية محددة ، موضوعها أفراد قابلين جوهريا للتشكيل. غير أن مثل هذه التصورات ذات الطابع الإكراهي ، لم يكن بوسعها مقاومة التطور الذي عرفته التربية الحديثة في سياق التحليل الفرداني . فالتربية بمفهومها الحديث ،أصبحت تقوم على أساس التفاعل و تسعى الى تنمية الاستقلالية لدى الأفراد و القدرة على الابتكار و الابداع و هي الخصائص التي تعمل المجتمعات الحديثة جاهدة على توفيرها لدى أعضائها لأهداف اجتماعية ، ثقافية و اقتصادية بصفة خاصة.

فما هو إذن موقع مفهوم التنشئة الاجتماعية بين المقاربتين الكلية و الفر دانية ؟

1- التنشئة الاجتماعية بمنظور الكلية المنهجية:

الكلية المنهجية (le holisme méthodologique) هي اتجاه سوسيولوجي يتبناه الوظيفيون الذين يدافعون على الفكرة القائلة بأن المجتمع أكبر من عدد أفراده ولأنه يسبقهم في الوجود فانه يفرض قيم و معايير و أدوار تمارس نوع من القهر عليهم . و بالتالي فان أفعالهم تحددها مؤسسات التنشئة الاجتماعية (الأسرة ،المدرس...الخ) التي تسعى الى بناء أفراد يمتثلون ويحترمون القيم ويقومون بأفعال طبقا للأدوار التي حددت لهم مسبقا بغض النظر عن حالات الانحراف. و من أبرز الوظيفيين المؤيدين لهذا الطرح ، تجدر الاشارة الى "دوركهايم" و مفهوم "القهر الاجتماعي " ، " بارسونس" و مفهوم "الامتثال للنسق الاجتماعي " ، "بورديو" و مفهوم "الهابيتوس" . و قد طور هؤلاء المنظرون هذه المفاهيم للتعبير عن تصورهم لعملية التنشئة الاجتماعية و تفسيرهم لها.

1-1-القهر الاجتماعي La contrainte sociale

رغم أن "دوركهايم " يعد من بين مؤسسي علم الاجتماع الأوائل إلا أن جزءا كبيرا من أعماله خصص لعلم اجتماع التربية حيث نجده في مؤلفه "التربية الخلقية " سنة 1902 ، يعرف التربية بأنها " التنشئة الاجتماعية المنهجة التي يمارسها الكبار على جيل الصغار [...] و تشير الى جميع التأثيرات التي تمارس من قبل الطبيعة و البشر على ذكائنا وعلى إرادتنا [....] و تتضمن كذلك التأثيرات الغير مباشرة على طبع و قدرات البشر من قبل أشياء غايتها غير ذلك مثل القوانين وأشكال الحكومة و الفنون الصناعية و كذلك من خلال وقائع مادية خارجة عن إرادة البشر مثل المناخ ،التربة و المكان المحلي أي أن كل ما يحيط بالفرد قد يؤثر على شخصيته و سلوكه " .و بما أن المجتمع يجد نفسه مع كل جيل جديد أمام أرضية فارغة تقريبا ،يقوم بإعادة البناء عليها من جديد لتزويد الكائن الأناني والغير اجتماعي الناشئ ، بكائن ثاني يستطيع أن يعيش حياة أخلاقية واجتماعية.[1]

ان "دور كهايم" بقوله هذا لا يفرق بين مفهوم التربية و مفهوم التنشئة الاجتماعية فهو يجعل في المقدمة دور المدرسة الأساسي في ترسيخ قواعد المجتمع لدى الأطفال كما أنه يركز على تربية خلقية سلطوية من أجل الحفاظ على استقرار المجتمع و بقائه و تتجلى هذه الفكرة عندما يقر بأن "كل المجتمع وكل بيئة اجتماعية ، يحددان المثل العليا التي تسعى التربية الى تحقيقها ، فالمجتمع لا يمكنه

البقاء إلا إذا وجد بين أعضائه درجة كافية من الانسجام و دور التنشئة الاجتماعية هو تكريس و تعزيز هذا الانسجام من خلال ترسيخ داخل روح الفرد الامتثال التام الذي تفرضه الحياة الجماعية ".[2]

ما تم ذكره سابقا ، يؤكد الطابع الحتمي و الكلي لتحليل "دوركهايم" الذي يرى أن المجتمع متعالي عن أفراده و أن الوظيفة التي تقوم بها مؤسسات التنشئة الاجتماعية هي تحضير الأفراد لأدوارهم الاجتماعية عن طريق القهر .ان القهر كما يتصوره "دوركهايم" الذي يمارس على الأفراد في كل لحظة من حياتهم ناتج عن الوسط الاجتماعي الذي يعيشون فيه ، وسط يسعى الى صقلهم وفق صورته و لم يكن الأولياء و المعلمين إلا وسطاء و ممثلين له.

1-2- الامتثال للنسق الاجتماعي La conformité au système social

أما التنشئة الاجتماعية كما يعرفها "بارسونس "(Parsons)، تقوم بمهمتين : أولا ، غرس القيم و المعتقدات و التعاليم الاجتماعية و اللغة و جميع الرموز الثقافية في نسق الشخصية ،و من خلال هذه العملية يتم تحفيز طاقة الفرد للامتثال و خلق الرغبة عنده للالتزام بالقواعد الاجتماعية و ربطها مع بقية المهارات الأخرى لكي يمارس دوره الاجتماعي .وتكمن الوظيفة الاجتماعية الثانية للتنشئة الاجتماعية في توفير الثبات و الضمان لوجدان الفرد لأنها تعمل على إزالة القلق و التوتر النفسي[3]. لا تبدأ التنشئة الاجتماعية عملها حسب رأيه إلا بعدما يدخل الطفل في تفاعل مع الكبار ، و عليه ينبغي على القائمين بالتنشئة الاجتماعية ، أن يمنحوا الطفل ، دورا و ينتظرون منه سلوكا محددا حتى ينطلق النمو النفس اجتماعي (psychosocial). إن السلبية التامة (la passivité totale) حسب رأي "بارسونس" ، لا تساعد على سير هذه العملية لأن بنية شخصية الفرد تعكس البنيات الاجتماعية الناتجة عن الخبرة[4] ، فالفرد بهذا المعنى يندمج من خلال امتثاله للنسق الاجتماعي القائم بتنشئته حيث تتكون شخصيته من خلال تفاعله مع الآخرين ، و كلما تدرج الطفل في السن كلما ارتفع عدد الآخرين و زادت العلاقات تمايزا معهم داخل أوضاع أكثر تعقيدا ،مما يجعل شخصيته هي نفسها تميل الى أكثر تعقيدا في استجابته لما يتوقع منه من سلوك بفعل المكافأة أو العقاب.

أما في حالة الانتقال من مرحلة الى أخرى (transition) أي عند ضرورة تغيير السلوك ، يجد الفرد نفسه في أزمة تستدعي إعادة بناء شخصيته ، و هنا يقوم بإضافة الأنساق الفرعية التي تشكل النسق الجديد و ذلك بتعلمه أدواره و أدوار الآخرين المنتمين الى النسق . فيمر الفرد على التوالي بالكمون و التكامل و البحث عن الكفاءات والسعي وراء الهدف ثم التكيف.

و يلعب القائم بالتنشئة الاجتماعية (l'agent socialisateur) كما يذهب إليه"بارسونس" دورين أساسيين : الأول و هو تشجيع الطفل على اتخاذه كنموذج ، و تشجيعه على الارتباط به (الدخول في نسقه الفرعي) و الثاني و هو القيام بدور النموذج الحقيقي بالنسبة للطفل.و تتكون هذه العملية من جانبين نفسيين : الجانب المعرفي (cognitif) الذي من خلاله يقوم الفرد بالتمايز من أجل بناء هويته و الجانب التحفيزي (motivationnel) الذي يتضمن التبعية ،الإحباط ،الارتباط ، و سلطة القائم بالتنشئة الاجتماعية أي أن الفرد المنشأ (socialisé) يبحث عن الكفاءات لكن يخضع في نفس الوقت للقهر[5]

1-3- الهابيتوس L'Habitus

في السياق ذاته قام "بورديو" (Bourdieu) بتطوير مفهوم "الهابيتوس" لتحليل العلاقة بين التنشئة الاجتماعية و أفعال الأفراد .فالهابيتوس بالنسبة له ، هو عبارة عن كل الاستعدادات و أشكال الفعل أو الإدراك التي يكتسبها الفرد من خلال خبرته الاجتماعية عن طريق التنشئة الاجتماعية ثم مساره الاجتماعي حيث أن كل فرد يستوعب بصفة بطيئة و تدريجية ، جملة من طرق التفكير و الشعور والفعل التي تصبح مع مرور الزمن ، دائمة. هذه الاستعدادات كما يشير"بورديو" سوف تكون أساسا لكل ممارسات الفرد في المستقبل [6]

غير أن الهابيتوس في نظر "بورديو" هو أكثر من عملية قولبة بسيطة قد تؤدي بالفرد الى إعادة إنتاج ما تم اكتسابه بصفة ميكانيكية لأن الهابيتوس هو عبارة عن أشكال (schèmes) من الإدراك و الفعل التي تسمح للفرد بإنتاج جملة من الممارسات الجديدة المتكيفة مع العالم الاجتماعي الذي يوجد داخله . و عليه فان "بورديو" يتصور مفهوم الهابيتوس باعتباره بنيات مستقرة ، تم بناؤها و مستعدة على الدوام للعمل كبنيات مصيغة للبناء (structures structurées et structures structurantes) . فالهابيتوس بنية تم بناؤها لأنها نتيجة التنشئة الاجتماعية لكنه في نفس الوقت بنية مصيغة للبناء لأنه قد يصدر عنها عددا لا متناهيا من الممارسات الجديدة .

و في حال تؤدي هذه الاستعدادات الى تشكيل نسق ، فالهابيتوس يصبح أصل وحدة التفكير و الفعل لدى كل فرد. وبقدر ما يكون الأفراد المنحدرين من نفس الجماعات الاجتماعية قد عاشوا تنشئة اجتماعية مماثلة ،فان الهابيتوس يفسر كذلك تماثل طرق التفكير و الإحساس و الفعل الخاصة بالأفراد المنتمين الى طبقة واحدة. غير أن "بورديو" يلاحظ أن هذا لا يعني أن استعدادات الهابيتوس ثابتة و غير قابلة للتغيير فمسار الأفراد الاجتماعي قد يؤدي الى تغير جزء من الهابيتوس لديهم .

ويضيف "بورديو" أن الاستعدادات التي تكون قابلة للنقل أي الاستعدادات المكتسبة ضمن نشاطات اجتماعية معينة داخل الأسرة مثلا ، يمكنها أن تنقل الى نشاطات في العالم المهني .و ترتبط قابلية الاستعدادات هذه بفرضية مركزية صاغها في مؤلفه "التميز" (La distinction) الذي خصصه للبنية الاجتماعية ، مفادها أن استعدادات الأفراد تتوحد ،أي أن سلوكياتهم ترتبط فيما بينها من خلال أسلوب مشترك ، حيث حاول إبراز وجود أساليب معيشية (styles de vie) أساسها اختلاف الأوضاع الاجتماعية و يبين على سبيل المثال ، الرابط الذي يوحد كل ممارسات العمال الاجتماعية أي إدراكهم للأشياء حولهم فالعمال يولون أهمية ، في تصوره ، لمضمون التغذية و ليس شكلها و نفس الشيء بالنسبة للفنون و بكلمة أخرى فان ما هو مهم لديهم هو نفعية الأشياء و فعاليتها و عليه فان أسلوب الحياة هو نتيجة استعدادات "الهابيتوس" و التي هي بدورها نتيجة نمط الحياة. فحياة العمال تندرج في نمط الضرورة في غياب الموارد الاقتصادية و بالتالي فإنها تولد استعدادات يهيمن فيها السعي وراء ما هو نافع و ضروري.[7]

2 - التنشئة الاجتماعية بمنظور الفردانية المنهجية

الفردانية المنهجية (L'individualisme méthodologique)اتجاه سسيولوجي يقابل اتجاه الكلية المنهجية حيث أن أنصاره يفترضون أن القيم و المعايير و الأدوار الاجتماعية ، ما هي إلا إمكانات بمتناول الفرد الذي يحتفظ بهامش من الحرية خلال ممارسة أدواره . فالفرد حسب هذا التيار ، يسعى دائما وراء مصالحه الخاصة والنتيجة هي أن الفرد فاعلا اجتماعيا ، يقوم باستيعاب الأمور على أساس مصالحه الشخصية و عند الضرورة يغير القيم و المعايير التي طال ما تمسك بها. و من أبرز رواد هذا المذهب السوسيولوجي لا بد من الاشارة الى "ماكس فيبر" و نظريته حول " الفعل الاجتماعي" التي تشكل منطلق و أساس التحليل

الفرداني حيث نجد على سبيل المثال، " ريموند بودون"(Raymond Boudon) يسير على خطواته من خلال تطويره مفهوم "الاختيار العقلاني أو الاستراتيجي" الى جانب علماء الاجتماع التفاعليين و التفاعليين الرمزيين مثل "هربت ميد" (G.H.Mead) و علماء النفس البنائيين مثل "بياجي" (J.Piaget).

1-2 الفعل الاجتماعي ذو الدلالة Action sociale significative

ينسب عادة اتجاه الفردانية الى العالم الألماني "م.فيبر"(Weber) الذي كان يرى عكس "دوركهايم" (المجتمع سابق عن الأفراد) أن العالم الاجتماعي (المجتمع) هو عبارة عن تجمع أفعال الفاعلين الواعين بأفعالهم ، والوحدة القاعدية في علم الاجتماع هي الفعل الاجتماعي لفاعل واحد .فالمقاربة الفردية أساسها قناعة العلوم الاجتماعية و التي يسميها "فيبر" العلوم الثقافية المختلفة حسبه عن العلوم الطبيعية[8] و المبدأ بالنسبة له هو أن الإنسان كائن يتمتع بوعي و يقوم بفعل ما بدلالة فهمه و إدراكه للعالم و مقاصده الذاتية. وعليه فان تحليل الواقع الاجتماعي يقتضي الانطلاق من هذه الأفعال و المقاصد (intentions) التي تكمن وراءها حيث يقول : " نقصد بمفهوم الفعل ذلك السلوك الذي يعطيه الفاعل معنى ذاتي و من بين التصرفات الإنسانية لا يهتم علم الاجتماع إلا بما هو نتيجة معنى ذاتي و لذا فان علم الاجتماع لا يدرس إلا الأفعال الاجتماعية ، تلك التي تكون موجهة نحو الآخرين.

فعلم الاجتماع ينبغي حسب رأي "فيبر" ، أن يكون ذو طابع فهمي ، يبحث على معنى و دوافع السلوك الانساني لأنها وراء الأفعال المراد فهمها و بهذا المعنى فان علم الاجتماع لا يسعى الى الفهم فحسب بل عليه تفسير كيف يتم الفعل و ما هي نتائجه. وتتمثل مهام البحوث السوسيولوجية و التاريخية كما يذهب اليه "فيبر" في اكتشاف قبل كل شيء جميع المؤثرات وجميع التسلسلات بين الأسباب التي يمكن تفسيرها بصفة مقنعة باعتبارها ردود فعل لها علاقة بالوسط الاجتماعي. إن اختيار الشغل و المسار المهني كما يضيف ،يتم تحديده من قبل خصوصيات ذهنية مرتبطة بالوسط و بكلمة أخرى فان نمط التربية يحدده و يفرضه المناخ الديني الذي يسود المحيط الأسري .

2-2- براديغم التفاعل Le paradigme de l'interaction

من بين الذين دافعوا عن البراديغم الفرداني يحتل "ريموند بودون" الصدارة و هو الذي عارض هذا الاتجاه منذ السبعينات بكل قناعة حيث قدم التفاعل كنموذج بديل للتحليل الكلي الذي ينظر الى التنشئة الاجتماعية باعتبارها استيعاب المعايير و القيم و الأدوار و المعارف في صيغة برامج يتم تنفيذها بصفة ميكانيكية كما يقول. إن تصور "بودون" لعملية التنشئة الاجتماعية هو أن مادامت تفاعلات الطفل تحدث بينه و بين الأولياء فانه يميل الى التصرف بطريقة أنانية ، مركزة على ذاته (egocentrique). و بالتدريج تبدأ الرقابة الوالدية تتراجع بينما يندمج الطفل داخل جماعة الرفاق حيث يفهم شيئا فشيء أن احترام حقوقه مرتبط باحترامه لحقوق الآخرين .و هنا يستوعب معنى المعاملة بالمثل و معنى العدالة الاجتماعية.

يستند "بودون" في دعمه لبراديغم التفاعل الى النقاط التالية :

أ- يمكن تصور التنشئة الاجتماعية كعملية تكييفية ،

ب- الفرد يقوم بفعل ما هو أفضل لديه و ما يعود عليه بالفائدة. هذه الفرضية التي يعبر عنها بمفهوم الأمثلية (optimisation) تقتضي أن التنشئة الاجتماعية السابقة يمكن أن تكون وراء ادراك خاطئ لوضع ما قد يواجه الفرد

ج- التمييز بين التنشئة الاجتماعية الأولية و التانوية.

ان نتائج التنشئة الاجتماعية كما يقر "بودون" لا تشكل سوى واحد من عوامل الفعل بينما العوامل الحاسمة في تصرفات الأفراد و قراراتهم تكون نتيجة اختيارهم العقلاني أو الاستراتيجي باحتساب التكاليف و الأرباح المادية و المعنوية.

3-2- التنشئة الاجتماعية ثنائية الاتجاه La socialisation bidirectionnelle

لقد ساهم ظهور سوسيولوجيا الطفولة في توجيه البحوث الى الاهتمام بدور الطفل ليس فحسب في تربيته الخاصة و تنشئته ،بل كذلك في قدرته على تغيير جميع التفاعلات الأسرية بما فيها تربية الأولياء و تنشئتهم الاجتماعية و في هذا السياق تجدر الإشارة الى البحوث التي قام بها كل من "مونتوندون و سابرو"(Montandon et Sapru) والتي أبرزت بوضوح الطابع ثنائي الاتجاه (bidirectionnalité) للتنشئة الاجتماعية داخل الأسرة الحديثة. فالنقل الثقافي بهذا المعنى ،لا يتم في اتجاه واحد حيث أن الأطفال لا يعيدون بناء القيم و المعارف المنقولة من قبل الأولياء فحسب ، بل يدخلون عناصر ثقافية جديدة ،يقومون بحقنها داخل الأسرة.[9] لقد جاءت هذه العناصر لتزعزع التماسك الكبير نوعا ما، الذي كانت تتمتع به المقاربة الدوركهايمية ، حيث أن التنشئة الاجتماعية لا يمكنها أن تحدث، حسب هؤلاء الباحثون ، لدى فرد متلقي (passif) بل لدى فرد فاعل (actif) يستطيع التكيف مع متطلبات المحيط و التأثير على هذا المحيط نفسه. فالتنشئة الاجتماعية لا تعني فقط إعادة الإنتاج بل وكذلك المبادرة و الابتكار.[10]

و ينظر أصحاب هذا التيار الى التنشئة الاجتماعية بوصفها عملية ينمي الفرد من خلالها ، نماذج السلوك الاجتماعي الخاصة به و التي يكون قد تبناها عن طريق تفاعله مع الآخرين وتشير "مالوفسكة-بير" (Malewvska-peyre) أن الطابع الأحادي للتنشئة الاجتماعية ترك مكانه لتصور بشكل صفقي (transactionnel) يعتبر أن التنشئة الاجتماعية الناجحة لا يمكن اختزالها الى امتثال الطفل لمعايير الكبار بل هي النتيجة الديناميكية لتكيف متبادل بين الطفل و الكبار و التي قد تأخذ شكل عقد ضمني أو صريح بين الأولياء وأبنائهم.[11]

و عليه فان علم الاجتماع المعاصر يأخذ بعين الاعتبار وبصفة متنامية ، الفاعل الفردي في تصرفاته ، بعيدا عن الفرد الإحصائي المتوسط الذي لا يتمتع لا بسلوك خاص و لا باستراتيجية خاصة .فعالم الاجتماع أصبح اليوم يولي اهتماما من جهة بالفرد و الفاعلين الاجتماعيين و من جهة أخرى ، بالعلاقات التي من خلالها ،يبني الفرد نفسه وفي ذات الوقت هوية الآخرين و يساهم في بناء العالم الاجتماعي .و يذهب علماء النفس التربويون الى أبعد من ذلك تحت تأثير منظري ما يسمى ب "التحيين الذاتي " (actualisation de soi) بتأكيدهم على أن التنشئة الاجتماعية لا تكون حقيقة ناجحة إلا إذا رافقها تفتق شخصية الفرد و تحقيق ذاته[12] ولهذا السبب ،فان التيارات المحسوبة على علم الاجتماع المعاصر لن تخفي رفضها تجاه الاهتمام المفرط بالرقابة الاجتماعية و الوظائف الترويضية للمؤسسات التربوية .و مع تطور المنظور التفاعلي للتنشئة الاجتماعية ، تم التركيز على ديناميكية التفاعلات الاجتماعية في عملية اكتساب المعارف و المهارات حيث يقوم الفرد نفسه ببناء نسق الفهم و الفعل الخاص به في المحيط الذي يعيش فيه .فيقوم في هذا الصدد بإعادة ترجمة المعايير و القيم و النماذج التي تم استيعابها من طرفه ليسقطها على مختلف الحالات الملموسة التي قد

يصادفها و على الجماعات المختلفة التي قد ينتمي إليها. هذا المنظور الجديد من شأنه أن يركز على الفرد لأنه كما يقول "كوريلسكي": "التنشئة الاجتماعية هي بالأساس عملية بناء الهوية الاجتماعية للطفل و لذا يلعب فيها الطفل دورا فعالا"

2-4- التفاعلية الرمزية L'interactionnisme symbolique

تعد النظرية التفاعلية الرمزية من أهم النظريات التي سادت بعد السبعينات من القرن الماضي و يتميز التصور التفاعلي الرمزي بمنحه مكانة أكثر ديناميكية للأنا داخل العلاقة بين الطفل و المجتمع ، و يتجلى هذا التفاعل بطرق مختلفة، فالطفل الصغير يتلقى تعلمه الأول عن طريق أوليائه ثم بعد ذلك عن طريق أفراد آخرين و هنا يشير "ميد" (Mead) في مؤلفه " العقل ،الذات ، المجتمع " الى أهمية تعلم الأدوار الاجتماعية في تكوين شخصية الطفل . يتم تفسير تكوين الذات حسب "ميد" من خلال التبادل مع الجماعة ،و لهذا يعتبر التفاعل ، الميكانيزم الرئيسي في التنشئة الاجتماعية لأن الفرد يدرك و يتصور نفسه عن طريق العلاقة مع الآخرين.[13]

و تتحقق شخصية الطفل و تنمو تدريجيا في إطار اللعب و هو ما يعبر عنه "ميد" بمفهوم "تقمص الدور" (la prise de rôle) ، يلعب الطفل بحرية مع نفسه مخترعا شخصا خياليا يسمح له بالقيام بدور أقاربه (الأم الأب ، أو أبطال رسوم متحركة...الخ).و في المراحل التالية من الطفولة ، تتواصل التنشئة الاجتماعية لتجعل الطفل قادرا على الاندماج في لعبة تؤطرها قواعد خارجية و يصبح الطفل واعيا بأن كل حالة تتميز بسلوك خاص و بالتالي ضرورة تبني سلوكا خاصا من أجل الاندماج في جماعة خاصة وتؤدي عملية التنشئة الاجتماعية بهذا المعنى الى تجريد متنامي تجاه القواعد ،فبينما كان التفاعل في البداية يقوم على العلاقات المتبادلة بين الأشخاص يصبح مرتبطا بتوقعات الآخرين. و في الأخير يصبح الفرد كائنا اجتماعيا ، و يكتسب اعتراف الجماعة بعضويته الكاملة ويصبح قادرا على القيام بأدواره بطريقته الشخصية. فالتنشئة الاجتماعية إذن حسب التفاعليين الرمزيين تتمثل في اكتساب الشفرة الرمزية نتيجة صفقة بين الفرد و المجتمع.[14]

2-5- البنائية Le constructivisme

يعتبر "بياجي" (Piaget) من المؤسسين الأوائل لمذهب البنائية ، فهو يتصور التنشئة الاجتماعية بوصفها عملية تكيف متقطعة حيث أن الفرد يقوم في المرحلة الأولى باستيعاب العناصر و الأشخاص الخارجة عن البنيات الموجودة لديه ثم يقوم في المرحلة الثانية بتعديل البنيات حسب التغيرات الخارجية .فالتعلم بالنسبة له ،عملية تنظيم ذاتية للتراكيب المعرفية للفرد و تهدف الى مساعدته على التكيف ،أي أن الكائن الحي يسعى للتعلم من أجل التكيف .فعند تفاعل الفرد مع البيئة يقابل فيها مؤثرات أو مشكلات ، فيلجأ الى التراكيب المعرفية الموجودة لديه فإذا وجد ما يساعده على فهمها و حل مشكلته ، تكيف و اتزن و أضيفت المعرفة الجديدة الناشئة عن الخبرة الجديدة الى بنيته المعرفية و إن لم يجد ما يساعده على الفهم و حل المشكلة ، إما أن ينسحب و إما أن يفكر ، مما يجعله في حالة عدم التوازن فيبحث و يستقصي و يجري التجارب أي يحاول القيام بالنشاط المناسب للموقف و يتم التفاعل الناجح و الآمن حتى يحدث التنظيم المعرفي من خلال عمليتي الامتثال و المواءمة فيتم التكيف مع البيئة[15]، و يتم النمو المعرفي بفضل الإضافة التي نتجت عن التفاعل العقلي للفرد مع مثيرات الموقف الجديد أو مع المشكلة الجديدة و يعود الفرد الى حالة الاتزان و بذلك يكون قد أضيف الى البنية المعرفية للفرد معرفة جديدة .و تؤثر المعرفة القديمة و المعرفة الجديدة التي تم

دمجها ، في تفاعله مع المثيرات الأخرى في المواقف التالية حتى يتكيف مع البيئة بصورة نظامية متكاملة حيث يتم الاتزان . وهكذا يتم البناء و النمو المعرفي النظامي عند الإنسان.

هذه التعديلات التي تتضمن في آن واحد ،حالات توازن و حالات لا توازن و حالة تنظيم تؤدي الى النظر الى التنشئة الاجتماعية ،ليس كعملية خطية بل كعملية مستمرة و في الوقت ذاته متقطعة و هنا يشير"دوبار"(Dubar) الى أن التنشئة الاجتماعية هي التاريخ الذي يسجل على التوالي ، قطيعة مع تنشئة اجتماعية و الدخول في تنشئة اجتماعية أخرى و ذلك ما يسمح بتحديد المراحل الاجتماعية المتتالية مدى الحياة[16]أما "برشرون" (Percheron) فانه يميز بين عمليتين مختلفتين و متكاملتين في نفس الوقت : الاستيعاب و التلاؤم ، بالنسبة للعملية الأولى يحاول الفرد تغيير محيطه من أجل تكييفه مع رغباته بينما خلال العملية الثانية يميل الفرد الى تغيير نفسه من أجل التكيف مع ضغوط المحيط. فالتنشئة الاجتماعية على حد قوله ، ليست عملية نقل بسيطة لقيم و معايير و قواعد بل ترمي الى تنمية تصور للعالم (غير مفروض وغير جاهز) من قبل الأسرة أو المدرسة. يبنى هذا التصور من قبل الفرد الذي يقوم بتركيبه تدريجيا مستعيرا بعض الصور من مختلف التصورات المتوفرة ، لكن مع إعادة تأويلها ليجعل منها كلا جديدا و أصيلا.[17]

3- التنشئة الاجتماعية بين المقاربة الكلية و المقاربة الفردانية

من بين الذين اهتموا بموضوع التنشئة الاجتماعية و أثرها على شخصية الأفراد ، يمكن الاشارة الى "غ.روشي" (G.Rocher) الذي يعرفها بأنها " العملية التي عن طريقها ، يتعلم البشر و يستوعب ،مدى الحياة ، مما يجعله يتكيف مع المحيط الاجتماعي الذي قد يعيش فيه". و هو يؤكد مع ذلك على جانبين :[18]

الأول و هو اكتساب الثقافة و يتمثل هذا الجانب في عملية اكتساب المعارف و النماذج و القيم و الرموز الخاصة بالوسط الذي يعيش فيه الفرد ، سواء كانت جماعة أو مجتمع أو حضارة .و تبدأ هذه العملية عند الولادة و تستمر مدى الحياة و لا تعرف نهاية إلا مع الوفاة حيث تصبح هذه العناصر الثقافية عن طريق التنشئة الاجتماعية ، جزءا لا يتجزأ من الشخصية السيكولوجية، كما يصبح النسق الاجتماعي والثقافة بعد اندماجهما بالشخصية ، التزاما أخلاقيا و قاعدة الضمير الأساسية.

أما الثاني فهو التكيف مع المحيط الاجتماعي ، فالشخص الذي يتلقى التنشئة الاجتماعية ، ينتمي الى جماعة يشغل داخلها ، مكانا و يشترك مع بقية الأعضاء من حيث الأفكار و السمات بصفة كافية تجعله يتعرف على نفسه داخل " النحن " الذي تشكله الجماعة. ويذهب "روشي" الى أن الرجوع الى بنية القواعد أو المعايير الجماعية ، تجعل تصرفات البشر ذات دلالة و انسجام في نظر الفاعل نفسه و في نظر الآخرين الذين يعيش معهم. فالعلاقة بين الأشخاص وبالتالي التفاعل المتوقع بينهم نتيجة هذه العلاقة لا يمكن أن يحصل إلا إذا كانت معايير الفعل معروفة و مقبولة من طرف الكل و عندما يوجه كل فرد فعله نحو الآخرين على ضوئها. فالعلاقات التي تربط بين الأشخاص في هذه الحالة ، تقتضي إجماعا حول الحد الأدنى من المعايير المشتركة التي يتفقون عليها كموجهات لسلوكهم. فالفعل البشري حسب "روشي" ،اجتماعي بالأساس لأنه يناسب بنية الفعل التي تحددها المعايير و القواعد الجماعية[19]

يمكن أن نستخلص إذن ، أن ما يميز تعريف "روشي" للتنشئة الاجتماعية ، أنه يوفق بين تصورين مختلفين لهذه العملية ذلك أنه يقر من جهة، بدور المجتمع في تكوين و تحديد شخصية الفرد (غرس ثقافة الوسط الاجتماعي و بنية الفعل التي تحددها المعايير و القواعد الجماعية) وهو الطرح الذي يندرج في سياق التحليل الكلي و من جهة أخرى يشير الى الفرد بصفته فاعلا يقوم بإدماج العناصر الاجتماعية الثقافية الخاصة ببيئته ، في بنية شخصيته بفعل الخبرات و من خلال الفاعلين الاجتماعيين ذوي الدلالة بالنسبة له. فالفرد في هذه الحالة يصبح طرفا فاعلا في التنشئة الاجتماعية الخاصة به و ذلك ما يقترحه التحليل الفرداني .

الخاتمة:

مما سبق ذكره، يمكن أن نلتمس حقيقة واضحة و هي تطور مفهوم التنشئة الاجتماعية حيث أنه انتقل من المعنى التقليدي كما صاغه "دوركهايم" عندما أشار إليه ، بوصفه العملية التربوية التي من خلالها يكتسب الفرد مقومات جماعته ، لأن المجتمع لا يمكنه البقاء إلا إذا وجد بين أعضائه درجة كافية من الانسجام و دور التنشئة الاجتماعية هو تكريس و تعزيز هذا الانسجام من خلال ترسيخ داخل روح الطفل الامتثال الأساسي الذي تفرضه الحياة الجماعية ، الى معني أكثر حيوية مبني على التفاعل بين القائم بالتنشئة الاجتماعية و المتلقي لها. فعالم الاجتماع المعاصر ، أصبح يأخذ بعين الاعتبار الأفراد و الفاعلين الاجتماعيين من جهة و من جهة أخرى التفاعلات و خاصة العلاقات التي من خلالها يقوم الأفراد ، ببناء ليس فحسب أنفسهم بل كذلك بناء هوية غيرهم كما يساهمون في بناء العالم الاجتماعي حولهم يذهب علماء النفس التربويون الى أبعد من ذلك عندما يقرون بأن التنشئة الاجتماعية لا تتم بنجاح إلا عندما يرافقها نضج شخصية الأطفال و تفتقها و حتى اتفاقية الأمم المتحدة حول مكانة الأطفال داخل المجتمع و حقوقهم ، تخلت عن مفهوم سلطة الأولياء لصالح مصطلح مسؤولية الأولياء .

المراجع:

---

[1]Durkheim(E)., Sociologie et Education, Ed Puf, Paris, 1968, p7.

[2] Ibid, p8

[3] Parsons (T)., Eléments pour une sociologie de l'action, Paris, Plon, 1955, p 77.

[4] Parsons (T). ,Op cit, p 78.

[5] Ibid, p 79.

[6] Bourdieu(P) et Passeron(c)., La reproduction, Ed de Minuit, Paris, 1970, p 51.

[7] Bourdieu(P). , p 53.

[8]Weber(M)., L'Ethique protestante et l'esprit du capitalisme, Uqac, Chicoutimi,2002, p 121.

[9] Montandon(c) et Sapru(s)., L'étude de l'éducation dans le cadre familial et l'apport des approches interculturelles , Genève, 2003, p 127.

[10] Ibid , p 128.

[11] Malewska(H)., La socialisation de l'enfance à l'adolescence, Puf, Paris, 1991, p 50.

[12] Ibid, p53

[13] Le Breton(d)., L'interactionnisme symbolique, Ed, Puf, Paris, 2004, p 104.

[14] Ibid, p 105.

[15] Piaget(J)., La représentation du monde chez l'enfant, Ed Puf, Paris, 2003, p58.

[16] Dubar(c)., La socialisation des identités sociales et professionnelles, A. Colin, Paris, 2000, p 73.

[17] Percheron (A)., Stratégies éducatives, normes éducatives et classe sociale, Ed, ESF, Paris, 1981, p 41.

[18] Rocher (G)., Introduction à la sociologie, Ed, Hurtubise HTM, Montréal, 1995, p 19.

[19] Ibid, p 21.

مجلة حقائق